استلاب الكينونة المؤنثة

قراءة في روايتي (بحر ساركاسو الواسع) لـ(جين ريس) و (المحبوبات) لـ(عالية ممدوح)

أ.د مها فاروق الهنداوي

جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية

تستوحي جين ريس الكاتبة البريطانية المولودة في جزيرة دومنيكا الكاريبية في روايتها (بحر ساركاسو الواسع) شخصية زوجة السيد روتشستر الكريوليوية في رواية(جين اير) لشارلوت برونتي تلك الزوجة المجنونة التي كانت عقبة في سبيل زواج بطلة الرواية جين اير من السيد روتشستر ففي روايتها بحر ساركاسو الواسع تحاول جين ريس رد اعتبار السيدة انطوانيت كوسوي بمنحها فرصة للحديث عن طفولتها , ومن ثم زواجها من السيد روتشستر , وما حصل لها معه قبل , وبعد انتقالها الى منزله الانكليزي من احداث مؤلمة خلقت اثرا عميقا في ذاتها حتى اوصلتها الى الجنون.

لقد صورت لنا هذه الرواية طفولة انطوانيت البائسة اذ هي ضحية ولادتها بيضاء في جامايكا لعائلة امتهنت شراء العبيد وبيعهم , فكانت بعد اصدار قانون تحرير العبيد منبوذة كسائر افراد اسرتها من قبل البيض والسود على حد سواء. لقد كانت روحا معلقة بين عالمين تبحث عن خلاصها بلا جدوى فحتى زواجها من الرجل الانكليزي روتشستر , وانتقالها معه الى منزله الى انكلترا لم ينقذها من ان تكون ضحية دائمة لأعراف , وتقاليد ثقافية واجتماعية سنحاول ان نستعرضها في هذه الدراسة.

اما المحبوبات لعالية ممدوح فهي في الواقع رواية عن الروابط الانثوية التي تفعل فعلها المؤثر في بقاء الشخصية المركزية في الرواية (سهيلة أحمد) العراقية على قيد الحياة في منفاها الباريسي وهي تعاني من غيبوبة سببتها لها جلطة دماغية صبيحة قصف العراق من قبل قوات التحالف في حرب الخليج الأولى .. اذ تكشف الروايةعن مواجهة نادر الأبن الوحيد لسهيلة أصدقاء أمه في المستشفى عندما يجتمع الجميع خلال ساعات الزيارة حول سرير سهيلة نادر هو الأستاذ الجامعي المغترب في كندا والابن الذي يعاني فتوراً في العلاقة مع أمه مع انها من وجهة نظرة الرابط الوحيد الذي يربطه بهذا العالم لذا فقد حضر إلى باريس على عجل قلقاً مضطرباً على أثر (الا يميل) الذي تلقاه من صديقتها الحميمة (كارولين).

ان الذي يجمع بين كل انطوانيت وسهيلة هو استلاب الكينونة المؤنثة بشكل عميق ومؤثر شكل جرحا غائرا في ذات كل منهما فغير مسار حياتهما الى الابد. يقول جان جاك روسو : (ان تغترب يعني ان تعطي او ان تبيع , فالانسان الذي يصبح عبدا لاخر لايعطي ذاته وانما يبيعها على الاقل من اجل بقاء حياته) , وهذا ماحصل مع كلا هاتين الشخصيتين في الروايتين, فانطوانيت قدمت من قبل اخيها ريتشارد الى السيد روتشستر مع كل ماتملك من مال من اجل ان يقبل بالزواج بها مع انها ابنة لام مجنونة , اما سهيلة فقد قدمت حياتها واحاسيسها في هذا الوجود كانثى لزوج صارم, متسلط يعنفها في كل ليلة بابشع طريقة من اجل ان تحضى ب عائلة وابن . هذا الاغتراب التي عاشته الذات المؤنثة في كل من انطوانيت وسهيلة كان بسبب من مرجعيات اجتماعية وثقافية كرست السلطة

البطرياركية للاخ وللزوج وللاخرين في المجتمع على الذات المؤنثة حتى تحول هذا كله الى استلاب نفسي عاشته هاتان الشخصيتان بعد ذلك , فقد اصبحت كل منهما تلبس ذاتا اخرى غير ذاتها , ذات غريبة عنها اشعرتها بعزلتها , وخضوعها , وانكسارها ازاء القوة الغاشمة (البطرياركية) التي كانت تذيب وجودها شيئا فشيئا , فتحيله الى حطام .

لقت عانت انطوانيت من استلاب الهوية اذ ولادتها في جامايكا جعلتها منبوذة من البيض والسود على حد سواء لانها من عائلة كانت تمتهن شراء العبيد وبيعهم , فاصبحت مرفوضة في ذلك المجتمع بعد اطلاق قانون تحرير العبيد والغاء العبودية ففي ضيعة (كوليبري) حيث يعيشون لم يكن يزورهم احد , او يرضى بان يعمل عندهم في الخدمة او اصلاح البيت والحديقة, ((النساء الجامايكيات لم يعترفن بامي ابدا, انها تشبه نفسها فقط كما قالت كرستو فين)) . (الرواية 19) وامها تقول لها:((نحن الان معزولون ومحاصرون , ما الذي سيؤول اليه حالنا ؟)) (الرواية20). بل كانوا كثيرا مايقابلونهم بالسخرية والعداء والعنف ((كانوا يحدقون فينا, ويضحكون احيانا)) (الرواية 22) . مع هذا كله ظلت امها متمسكة بهويتها الجامايكية, تقول عنها انطوانيت:((وبالرغم من انها تستطيع ان تتحدث الانكليزية بطلاقة عندما يحلو لها والفرنسية وكذلك اللهجة المحلية فقد ظلت حريصة على التحدث كما يتحدثون)) .(الرواية 23) لكن ذلك كله لم يكن شافعا لهم في ذلك المجتمع ((كانوا يكرهوننا , ينعتوننا بالصراصير البيض)). (الرواية 25) هذا الاحساس باستلاب الهوية ادى بها الى حالة من الاغتراب المكاني عن هذه الضاحية التي يعيشون فيها حتى باتت ترى حشائش الموس التي تحيط بالمنزل, والاعشاش الطويلة التي تكتظ بالنمل الابيض , والمطر الذي ينقعها حتى الجلد , والافعى التي تحوم حول المنزل((ارحم , ارحم , ارحم من الناس)) (الرواية 31) لذلك هي تفكر جديا بعد زواجها من السيد روتشستر بالانتقال معه الى لندن بوصفه رجلا انكليزيا فقد كانت ترى في لندن المكان البديل المنقذ لها من هذه الضاحية الموحشة , والقاسية((ان عشت في انكلترا ساكون انسانة مختلفة, وستحدث لي اشياءُ مختلفة..... انكلترا الزاهية كالورد في خارطة كتاب الجغرافية.....)) (الرواية 126).

اذن عانت انطوانيت من استلاب الهوية, ولكن قدرها اضاف اليها معاناة اخرى بقيام اخيها بتزويجها من السيد روتشستر فضلا عن اعطائه كل ماترك لها زوج امها السيد (كوسوي) من مال دفعها هذه المرة الى الاحساس باستلاب من نوع جديد ذلك هو استلاب كينونتها في هذا الوجود بوصفها(انثى) فقد احست انها سلعة بيعت الى مشتريها مع دفع ثمنهامن مالها الخاص فقط من اجل ان يقبل بها . ومع هذا كله رات في هذا الزوج المنقذ لها من ضياعها واستلاب كينونتها التي عاشتها قبله , تقول له : ((لم تكن لدي اية رغبة بالحياة قبل ان اعرفك , كنت اؤمن دائما ان الموت خير لي واني مضطرة للانتظارزمن طويل قبل ان تحين النهاية)) (الرواية 103), لكنها تساله بعد ان صرح لها بانه لم يحبها بل رغب فيها فقط((لماذا دفعتني الى حب الحياة , لماذا فعلت هذا بي)) (الرواية 104). بل انها كانت تخاف من السعادة لانها تثير فيها الخوف, تقول له :- ((لم اتعود على السعادة ,انها تثير في الخوف)) ((الرواية 105).

لقد ظل تاريخ عائلتها الاسود يطاردها مشكلا عبئا ثقيلا عليها , ظل المجتمع من حولها يحاسبها عليه رغم انها لم تكن السبب فيه فعاشت تحت وطأة استلاب مجتمعي ظالم . لقد كانت رسالة دانيال الابن الضال للسيد كوسوي زوج امها السابق التي وجهها الى زوجها القشة التي قصمت ظهر البعير فقد اخبره بحقيقة هذه العائلة وتاريخها الذي حاولوا اخفاءه عنه يوم زوجوها له :(انهم ملاك عبيد ملؤهم الشر وهم موضع كراهية الناس منذ اجيال ... لقد مات كوسوي العجوز في حالة هياج وهذيان كما مات ابوه من قبله)) (الرواية 109) , اما امها ف((جنونها يزداد سوء حتى يصبح من اللازم حجبها عن العالم بعد ان اقدمت على محاولة قتل زوجها وهو امر لم يكن الجنون سببه الوحيد))(الرواية 110) والحقيقة ان امها جنت بعد وفاة اخيها الصغير ((بيير)) الذي ولد مريضا ومعاقا كما اخبرتنا الرواية . لقد اسهمت صورة امها المجنونة ومعاناتها امام ناظريها في تكريس احساسها بالاغتراب والاستلاب في عالم(كوبيري) المخيف اذ ترك والدها امها المجنونة برعاية رجل وامرأة ملونين ليقوما على رعايتها ثم غادر جامايكا ونسيها(الرواية 153), اما امها فاصبحت امرأة مجنونة مستباحة للملونين في بلدتها .(الرواية 154) .لقد مارس السيد روتشستر زوج انطوانيت نوعا اخر من استلاب الهوية عليها اذ بدأ ينعتها باسم اخر غير اسمها وهو (بيرثا) وهذا ماكانت ترفضه منه على الدوام لكنه ظل مصرا عليه تقول له :((اسمي ليس بيرثا, لماذا تسميني بيرثا ؟)) فيجيبها ((لانني مولع ولعا خاصا بهذا الاسم انا افكر فيك باعتباري بيرثا))(الرواية 155) . اذن هو يستلب اسمها وما يضفيه عليها هذا الاسم من سمات وهوية ويفرض عليها ان تكون امرأة اخرى بأسم اخر , ومع هذا كانت توافق في بعض الاحيان مقابل ان يقدم لها شئا من الحنان .ثم استلب كينونتها بوصفها انثى عندما خانها مع اميلي خادمة المنزل, بل وتعمد ان تعرف هي بتلك الخيانة ليزيد من مأساتها.....

لقد كانت نهاية وعي انطوانيت بهذا الاستلاب الموجه لها من الزوج والمجتمع انها بدأت تشعر انها تنتمي الى(الظلام) تقول له:((اذهب انت , اوريد ان ابقى في الظلام .... الى حيث انتمي))(الرواية 156).وفي الغرفة التي سجنها فيها زوجها في بيته بعد ان اخذها معه ال انكلترا اخرجوا كل شئ من الغرفة فباتت تتساءل :((ماذا افعل في هذا المكان , ومن اكون؟)) (الرواية 206) فمامن مراة لترى نفسها فيها وتتعرف عليها :((هنا لاتوجد مرايا, وانا لااعرف شكلي الان)) ((الرواية 206) . انه احساس مرير باستلاب الصورة التي تعرفها عن نفسها وعن شكلها:((الفتاة التي رايتها هي انا ومع ذلك فهي ليست انا تماما))(الرواية 206).

اما سهيلة في المحبوبات فقد كان رفضها للاستلاب الذي مارسه عليها زوجها في الوطن يتخذ اشكالا متعددة في كل مرة إذ هي ترفض البكاء منفردة لكنها تتقبله وهي في جماعة من صاحباتها اللاتي يتعرض لما تتعرض له يومياً من قسوة وإهانة فتقول مخاطبة أبنها نادر: " كفى نقول ، نحن النسوة إننا نستطيع البكاء، والتحدث ونحن مجتمعات. كانت تقودنا تلك الأحداث الى التذكر"[17]. إذ هي تشعر بشيء من المؤازرة والمواساة في هذه في هذا الاجتماع رداً على ما تتعرض له.

وترفض المبالغة التي يسم بها هذا الآخر لـ(الرجل) بها حديثها عن جماعتها من النساء تقول: (لا لم نبالغ ، لكننا نحدس كثيراً بما حصل لنا ولهم ، وبما سيحصل) (الرواية 8) . وترفض تجاهل الآخر (الرجل) لها ولبنات جنسها (لا أحد يلاطفنا كما يجب)[19]، مع انها ترى في الملاطفة نوعاً من العلاج. و الوحدة والإحساس بها وترى ان اجتماعها مع صاحباتها تحت مظلة (نون النسوة) تحيي الأمل فيها وفيهن من جديد :" نعتقد أن لا أمل لنا ، لكن ما إن نجتمع معاً ، حتى لو كان الحديث عن غيرنا بدافع النميمة واطلاق الشائعات ، نكتشف أن بعضنا ، كلا ، كلنا ، في حاجة الى مساعدة .. لسنا وحيدات.(الرواية 8) كما ترفض الواقع الذي يضغط عليها بحمولاته الثقافية والعقائد والاجتماعية إلى الحد الذي تطلب فيه أن تحل محل القطب الآخر المناوئ لها في هذا الواقع وهو (الرجل) علَّها تتخلص من ظلمه وقسوته فنقول لصاحبتها في الوطن (تصوروا لو كانت لنا شوارب مثلهم ، لو نعتمر قبعة أحد أزواجنا ، لو نكون بدلاً عن السواق ، نحن الذين نسوقهم إلى مقار أعمالهم) (الرواية 8) لكن عرضها يقابل بالرفض منهن إذ لا يستجبنا للضحك كما كانت تتوقع(الرواية 8) كما انها ترفض صورتها وحالها يعد كل اعتداء جسدي عليها من الزوج ويظهر رفضها هذا بمحاولاتها أخفاء هذا التجاوز على جسدها عبر صبغ وجهها المتورم بالألوان والماكياج ، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لأن يخفي عن صاحباتها شكهن بما تعرضت له من اعتداء جسدي في وقت سابق لكنه شك "كان يتبدد بمجرد أن أبدو أمامهن واقفة أو جالسة ، بشرتي مصبوغة ، خداي متوردان كالعادة بالأحمر الفاهي ، عيناي الكبيرتان يزداد اتساعهما وأنا أظلل جفنيهما باللون الرمادي المزرق كي أخفي ورمهما(الرواية 8) وعلى الرغم من كلِّ ذلك لم تنصحها أياً منهن بحل! ما(الرواية 8) وهي ترفض أن تسمي ما كان يحصل لها ولصاحباتها بشكل يومي في الوطن بالمأساة : "كنا نتشابه ونحن نتحدث عن أمر طبيعي ، تلك الأمور ، سمِّها ما شئت لكن لا تقل إنَّها مأساة(الرواية 8). رفضها لآثار الاعتداء الجسدي عليها ومحاولتها تغيير معالم هذا الاتجاه يكون بالرقص (كنتُ أرقص كي أرفض من خلاله أموراً شتى)(الرواية 10) وهي ترى في لجوئها إلى الرقص تعويضاً عن إحساسها القوي بالضعف ، فهي ترقص بعد كلِّ اعتداء جسدي عليها من الزوج تعبيراً عن عنفوانها ، تقوى لنادر "بعد ذلك بأعوام أثناء وجودنا في باريس ، قلت لسارة العراقية زميلتي في السكن والحياة : (من الجائز أن يكون الرقص عنفوان الشعوب الضعيفة(الرواية 10) لكنها في النهاية تعلل وجودها الشائك في الحياة على صورة حياة زوجية غير مستقرة مع رجل غاشم ومتصلب بنوع من العلاقة السببية المتبادلة بين الطلقة القاتلة وبين بندقية الصيد ، تقول لنادر: "في ما بعد يا نادر أطلق عليّ اسم الرصاصة القاتلة وأنا أسميته بندقية الصيد.(الرواية 11) .

اما في المنفى فهي تقاوم الاستلاب بطريقتها الخاصة اذ ترفض لحظات الوداع والإحساس باقترابها حتى في الغربة التي تعي جيداً أن قانونها الأول هو الاغتراب الدائم الذي يسم كل من يتخذ منها خياراً وحيداً في الحياة والدليل توصيفها لها في مفتتح الرواية (في المطارات نولد وإلى المطارات نعود) إذ المطارات هي الأخيار الأخير والوحيد لكل مغترب ، تقول لنادر قبل ساعات من افتراقها وهما يجتمعان على مائدة الطعام:

"حان دورك يا نادر ضع الشوك والملاعق والصحون ولا تنسى أن تبدل ماء المزهرية وإلا تضعها أمامنا كأننا في حفل وداع دعها بعيداً فلا يزال لدينا متسع من الوقت قبل الذهاب إلى المطار(الرواية 12) لكنّ أهم ما تجاهد سهيلة نفسها لكي لا ترضخ له وتقع في أسره هو أن تنسى بغداد ، أنها ترفض ذلك وبشدة على الرغم من كلِّ ما جرى لها فيها أنّها تخاف من نفسها إن نسيت تقول: "لن أنسى يا نادر إذا توقفت عن ذلك فستتمكن نفسي مني ، وهي أشد رعباً ووحشية م الآخرين ، لست قادرة على شنق نفسي ، ربما هكذا كان مصير والدك ، إنني ببساطة لا أقدر ليس بمقدوري الانتحار في هذا السن ، لست عزلاء يا نادر إنني أسوأ حالاً مما تظن(الرواية 16) ومن أجل أن تظل محافظة على هويتها العراقية وتورث ذلك لابنها الذي كانت تسمعه وترسل له اسطوانات لداخل حسن وحضيري أبو عزيز ، ترفض ان لا يتعلم حفيدها ليون الغة الأم العربية بدفع ورغبة من أمه سوينا الآسيوية الأصول.(الرواية 32) ويتخذ موقف الرفض من سهيلة لكلِّ ما مرت به من أدوار في حياتها حالة من الرغبة في الانسلاخ عن الذات وعن الوجود والعالم الذي تعيش فيه ، وبخاصة عندما تشاهد عرضاً سينمائياً فتقول لنادر واصفة حالتها تلك : "ساعتان اجاور رجلاً وامرأة لا اعرفهما حتى يتلاشى الضوء والصمت والخارج تتلاشى أمك الواقعية وتنتصر الثانية التي لا اعرفها أنا ولا أنت..... في تلك البقعة المنزوية ، أصبح امرأة أخرى لا الوالدة ولا الزوجة ، لا الحرة ولا العبدة ، لا العراقية ولا الأجنبية ، لا أعود امرأة ناضجة وبالغة ورزينة.(الرواية 68) وبهذا تتحرر من وعيها المرير الذي يثقل عليها والذي تنوء بحمله ، ذلك الوعي التي يذكرها دائماً بضياعها ومتاهتها في هذه الغربة التي رمت بنفسها إليها طواعية بعد فقد زوجها في الحرب وغموض مصيره واستمرارها الدائب في البحث عنه حتى وهي في باريس عبر جمعيات الصليب الأحمر والجمعيات الإنسانية من دون جدوى . تخاطب أبنها وهما في الغربة بالقول: "لا أعرف أيّ شيء يا نادر ، ثمة شخص آخر داخلي يسير ويتنفس ويدخل الحمام ويغتسل وينام ، لكنه لا ينام إنني ألاحق نفسي أود لقاءها مجدداً لكني لا استطيع ، لا احتمل فكرة أنني فقدتها إلى الأبد ، سأبقى بانتظارها يانادر.(الرواية 72) وهي تقف في ذلك كلّه متأرجحة بين موضعين لا تعرف إلى أيهما تنتمي فتقول له "أشعر بأنني لست على حق ولا على باطل ، لست خائفة ولا غير مبالية ، وإن قواي الأولى ، تلك التي كانت لي في العراق ، ذهبت من دون رجعة ، رحلت(الرواية 72-73)

مما تقدم كله يتبين لنا ان الانسان المستلب المقهور سواء رضي بهذا الاستلاب , او رفضه فانه يعاني نمطين من الاغتراب , الاول واقعي يفرض عليه احساسا مأساويا والاخر اغتراب وعي لايعرف اسبابه فيحاول ان يعيش هاربا الى عالم اخرقد يتمثل ب(الجنون), او (الحب), او(الرقص), او (الموسيقى), او(تقمص شخصية اخرى) , او (اقامة علاقات انسانية جديدة).